المُهِمَّة

قصة قصيرة

الدكتور خليل فاضل

كانت مديحة تحاول اللحاق بالقطار، زلت قدمها وسقطت في حفرة ترابية رملية، ظلّت تغوص وتغوص حتى دفن جسمها كله عدا الرأس.

صرخت بأعلى صوتها طالبة النجدة..

ولأن القطار كان قد تحرك، مطلقاً صفارته المزعجة محركاً آلته الضخمة، حاملاً بين جنباته مئات البشر من كل الأشكال والالوان والأعمار، فإن فرص مديحة في النجاة كانت ضئيلة، لهذا كفت عن الصراخ.. وبدأت تفكر.. أخذ الرمل الترابي الساخن يضغط على بطنها وفخذيها، ناقلاً إلى أحشائها سخونته الشديدة، حاملاً إلى ضربات قلبها عبئاً لا يتحمل.. تصبب عرقها غزيراً، امتصه التراب الرملي ولم يرتو. ازداد تنفسها، وتحركت الرئتان من صدرها كوابور الطحين.

فجأة، بان في الأفق مجموعة من الرجال، حوالي خمسة، اقتربوا منها حتى بانت ملامحهم.. أحدهم كان يرتدي قميصا مزركشا، في فمه سيجار ضخم، وعلى رأسه قبعة ويرتدي بنطالاً قصيراً وصندلاً في قدميه... والآخرون يرتدون الكاكي وفي أقدامهم أحذية ضخمة، مدّ الأول يده وقال:

– أنا أحمد.. مهندس مدني.. أقوم ببناء فندق حديث في نهاية هذا الطريق الطويل.. سنساعدك على الخروج من الحفرة شريطة أن تساعدينا..

تساءلت مديحة في لهفة: كيف؟!

بلع أحمد دخان سيجاره، نفثه في الهواء..

قال: – أنتِ فنانة قديرة.. لكِ ذوق وإحساس مرهف.. هاك علبة الألوان.. وها هي الفرشاة. وما عليك إلا أن ترسمي هذا الطريق بلوحات رائعة مختلفة الألوان..

نظرت مديحة إلى الفرشاة الدقيقة الحجم، زاغ بصرها، ودّت لو تكلمت، لكنها فضلت الصمت قائلة: – أوافق..

مدّ الرجال المتحلقون بأحمد أيديهم الغليظة إلى مديحة، شدّوها في قوة، سمعت صوت احتكاك جسدها بالرمل الترابي، ارتعشت أحشاؤها.. وتنفست الصعداء..

تحلق الرجال بأحمد، ومضوا إلى سيارتهم الخفيفة.. واختفوا من اتجاه الفندق..

جلست مديحة تدقق النظر في الفرشاة الصغيرة وفي علب الألوان، مدّت بصرها في اتجاه الطريق الضخم الذي أكلته حرارة الشمس.. كانت تحاول جاهدة ان تقدر مساحته، وأن تحدد حجم المجهود والزمن الذي يمكن أن تنجز فيه مثل هذا العمل..

قررت أن تبدأ العمل دون تردد.. شرعت ترسم الورود والزهور، البحيرات والاشجار، النخيل والقمر والنجوم، الجبال والصحراء وكافة الاشكال الهندسية، تشنجت أصابعها على الفرشاة، تصبب عرقها غزيراً، أحست بالإرهاق، وبالعطش.

وما ان مضى اليوم السابع حتى كانت مديحة قد انتهت من مساحة لا تكاد تقدر بالواحد من الألف من مساحة الطريق. تنبهت إلى أنها قد أغفلت رسم البشر والبنايات في لوحاتها..

لكن.. هل هناك وقت؟!

سارت في اتجاه الفندق..

ظلّت تعدو، وتعدو، وتعدو...

سقطت متعبة عند موقع عمل يتقدمه نموذج ضخم مصنوع من المطاط المنفوخ بالهواء، على شكل رجل سمين جداً.

أخرجت من جيبها سكيناً، وظلت تقطع به، شهقت قائلة- هذا بالضبط ما اريد..

كانت أمامها ماكينة كبيرة مجهزة بكل شيء، أماكن لصب الطلاء، فرش أتوماتيكية، عقل الكتروني ضابط، منظفات...الخ ركبت الماكينة، حركتها في مهارة في اتجاه الطريق الضخم تلونه بسرعة فائقة.. حتى انتهت عملها في ظرف ساعات..

وقف الناس في شرف الفندق يتأملون الطريق الضخم الملون والذي بدا على شكل علم كبير!

سأل أحدهم: علم أي بلد هذا!

عدل آخر من وضع طاقيته وقال: أي الوان تلك؟!

ابتسمت سيدة سمينة قائلة: إن له رائحة المسك!

وقف أحمد وسط رجاله ينفث دخان سيجارة وهو في قمة غضبه قائلاً: هذا ليس اتفاقنا؟!

ردردت مديحة في جرأة:

- وهل يرضى إنسان بالموت صبراً وانتظاراً؟

عدّل أحمد من قبعته. وتبادل النظرات مع رجاله وقال:

- سنعيدك إلى الحفرة مرة أخرى..

ابتسمت مديحة وقالت:

- الحفرة غير موجودة!!

...لحظتها اندفع الآف الأولاد من على جانب الطريق، أخذوا أماكنهم فوقه كما لو كانت مواقع محددة لهم.. تشابكت أيديهم.. تهدّج صوتهم، وهدلوا بنشيد دوّى بقوة، شقّ صدر السحاب، وتغطّى بدماء القلب.

خليل فاضل

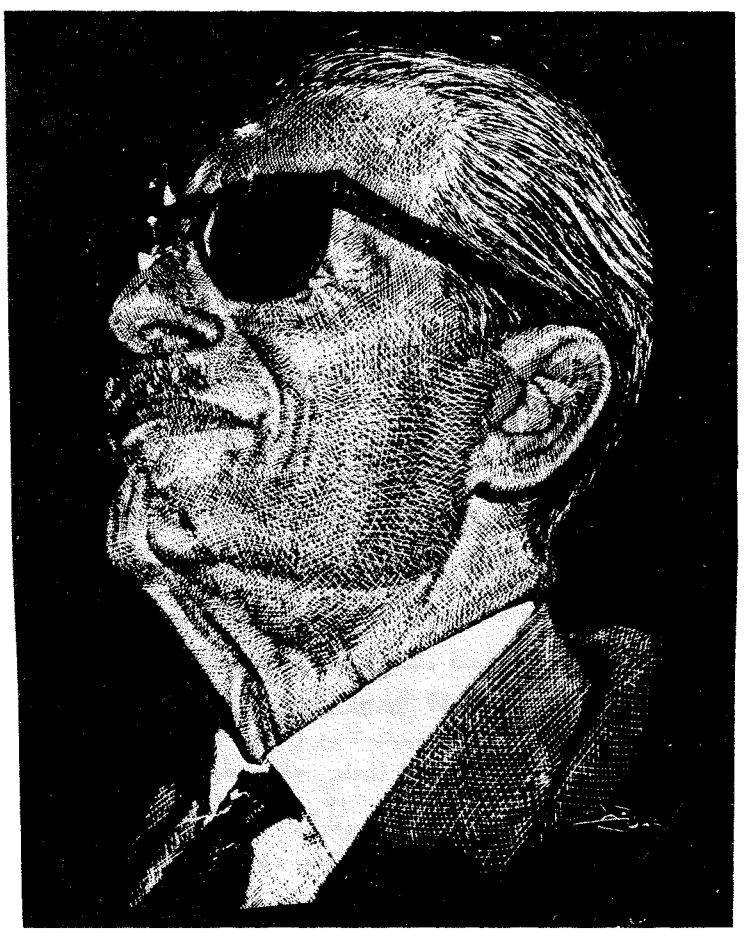

دار الآداب تقدم

الدكتور أحمد علبي

طه حسين

رجل وفكر وعصر